هاجس الأرض من خلال تداعي الحروف
فـــي " شتـــاء ريتا الطويل " لمحمود درويش

الطالبة : آمال منصور

س1 ماجستير– قسم الأدب العربي

جامعة محمد خيضر – بسكرة

إلى شعب يترجع الموت كل دقيقة على مرأى ومسمع العالم .

إلي وإليكم، وإلى كل عربي تنتهك حرمته هناك في الأقصى الشريف .

إلى كل من علمني حرفا . أقدم هذه المحاضرة .

مقـــدمـــة

حين تتحول الأرض هاجسا وجرحا ، حين تتمزق الذات العربية إثر صفعات الزمن وتختار السفر في مجهول هو النص الشعري، باحثة عن حقوقها المشروعة " الحب والحياة " باحثة عن عالمها ، ترابها المأخوذ قوة وغدرا ، ترتمي في أحضان الشعر ، في أحضان القصيدة ، فتكتب من دمها ودمعها حرفا ، وتتحول آنذاك الكتابة بوابة مشرعة على الوجع والضنى.

هانحن إذن نقف أمام قصيدة " **شتاء ريتا الطويل**" لمحمود درويش ن هذه القصيدة التي تكتب من أجل **أورشليم الحلم** ، القدس الضائعة في عمق روح محمود ، في عمق ذواتنا جميعا ، بل في عمق العالم بأسره.

إنها تلامس هما ووجعا عربيا ، وتعيد مسائلة الذات العربية سياسيا واجتماعيا وتاريخيا وشعريا على حد سواء .

تتوحد ريتا والشاعر على سرير الذكريات ، يتوحد الغالب والمغلوب ، القاتل والشهيد على سرير ضيق ، كما توحدت يوما " **جين مورس** " مع محمود سعيد على سرير الحب والفاجعة ، على سرير الشمال والجنوب ، لكن أي توحد ... فهل سيستمر ويثمر ؟ ستستعمل هذه الدراسة تقنية أثارت جدل الباحثين في اللغات الإنسانية جمعاء منذ القديم

إلى يومنا هذا ، هي " **تقنية تداعي الحروف** " حيث لا زالت القيمة التعبيرية للصوت محل جدل وخلاف.

إن التداعي اصطلاح مستعمل قياسا على تداعي الأفكار فمادة (د ع و) التي أخذ منها تعطي معاني شتى في سياج اللغة فريبا من الاستغاثة ، إذ يقول عز وجل ﴿**وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾ [1]

وتداعى القوم إذا دعا بعضهم بعضا حتى يجتمعوا وتداعت القبائل على بني فلان أي تألبت ، وداعية صريخُ الخيل في الحرب لدعائه من يستصرخه.

فما تحققه معاني التداعي إذن هي دعوة السابق للاحق ، فإذا قلنا " تداعي الحروف " فإنما لنعني أن الحرف الوارد في النص يدعو نظيره في النغم والرسم.[2] أما مادة (ح ر ف) فلها معان شتى متقاربة ،وحرف الشيء جانبه والحرف أيضا:" هيئة للصوت عارضة يتميز بها عن صوت آخر مثله في الحدة والثقل تميزا في المسموع "[3]

إن الباحثين في اللغة اليونانية- قديما- انقسموا إلى تيارين تيار (ديموقراطي) الذي كان يقول بالاعتباطية والاصطلاحية ، وتيار (طبيعي أو الكراتيلي) الذي كان يرى أن أصوات اللغة تمتلك تعبيرا ذاتيا، ووجدت كتب عديدة تثبت صحة هذا الرأي طوال قرون عديدة حتى أنه ظهرت في القرن 18 و19 بحوث تدعي وجود علاقة بين أصوات اسم العلم وبين خصائصه الجسدية والنفسية، لكن أهم رجة أصابت هذا الاتجاه وزحزحته من مكانه هي التيار البنيوي؛ أبطل الاعتقاد بأن الأصوات تحمل دلالة في ذاتها ، لكن بعد ظهور المنهج السيميائي عادت هذه النظرة إلى الساحة النقدية لتفرض نفسها ، فالصوت في عمومه يؤدي وظيفتين إحداهما: إيجابية والأخرى سلبية ، فالأولى عندما يساعد على تحديد معنى الكلمة التي تحتوي عليه وأما الثانية، حيث يحتفظ بالفرق بين هذه الكلمة والكلمات الأخرى[4]

هذا الطرح نجد صداه واضحا في الثقافة العربية ، فقد ذهب بعضهم أن أصل اللغة العربية كلها إنما هو مأخوذ مباشرة من الطبيعة ، أصلوا على ذلك أن معنى اللفظة مستقاض عن صورتها الصوتية كدوي الريح وخرير المياه وصهيل الفرس ، حيث يُدَعِّم ابن جني هذا الطرح ، واطمأن له وعبَّر عن ذلك في كتابه الخصائص فقال :"وهذا عندي

وجه صالح ومذهب متقبل"[5] فالألفاظ مناسبة لمعانيها وقد سئل أعرابي عن مسمى كلمة (أذغاغ) وهو بالفارسية : الحجر ، فقال: أجد فيه يبسا شديدا وأراه الحجر[6]

لكن الجمهور كان على مفارقة لهذا الرأي ومقاربة لنقيضه، ودليلهم في ذلك "لو ثبت ذلك لاهتدى كل انسان إلى كل لغة، ولما صح وضع اللفظ للضدين كالجون للأبيض والأسود"[7]

لدحض هذا الرأي نقول : اللغة كائن حي ينمو ويتطور ويتغير طبقا لعوامل الزمن والمكان والحركة، فقد الاصطلاح الذي وضع بعد محاكاته للأصل إلى معنى مستجد آخر كما استجد معنى "كفر" مثلا بعد الإسلام.

لكن مايجب أن نضعه نصب أعيننا أن الأصوات لا تحمل دلالة جوهرية في ذاتها ، لكنها تتحصل على معنى بناءً على التراكم الصوتي وعلى مؤشرات مواكبة (صرفية ومعنوية و...) وعلى السياق العام والخاص.

فالقصيدة تثير معناها انطلاقا من بناء الكلمات كأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعان، وذلك التكشف للمعنى الذي نشعر به في أية قصيدة أصلية إنما هو حصيلة بناء الأصوات.[8]

لقد تبين لنا بعد القراءات المتعددة لقصيدة "**شتاء ريتا الطويل**" ثم القيام بعملية إحصائية أن " **اللام** " تكررت، إذ تتحول الصوت المهيمن على النص بأكمله :

حرف اللام = **209**

استحوذت اللام على السمع في القصيدة ، وازدحمت في السطر الواحد :

ريتا ترتب ليل غرفتنا قليل

هذا النبيذ

وهذه الأزهار أكبر من سريري

فافتح لها الشباك كي يتقطر الليل الجميل

ضع ، همنا قمرا على الكدية ، ضع (قمرا على الكرسي)

فوق البحيرة حول منديلي ليرتفع النخيل

أعلى وأعلى[9]

و "اللام " مجهور متوسط الشدة، شكله في السريانية يشبه اللجام وهو يتشكل على المرحلتين التاليتين:

الأولى : بالتصاق اللسان بأول سقف الحنك قريبا من اللثة العليا وحبسا للنفس.

الثانية : بانفكاك اللسان عن سقف الحنك ، وانفلات النفس خارج الفم.[10]

وفقا لدراسة أقامها د/ عباس حسن (الحروف العربية ومعانيها في موقع اتحاد الكتاب العرب بسورية على شبكة الانترنات) عثر في المعجم الوسيط على مئتين واثني عشر مصدرا تبدأ باللام ، كان منها وثمانون مصدرا تدل معانها على **الالتصاق بالمكان** (لب بالمكان لبا " أقام فيه " ، لبث بالمكان " مكث بالمكان " ، لبد بالمكان " أقام به ولزق " ، لثم ، لبث بالشيء " لصق به"، لث ولثلث بالمكان " أقام ، لذب بالمكان " أقام فيه ") [11]

نبادر نحن بالقول أن هذه الزيادة لحرف اللام لم تكن عبثا ، بل هي تعبّر عن هاجس متجذر في روح محمود درويش هو الأرض ، المكان ، القدس.

لعله عن طريق اللام يعلن عن تمثله واتصاقه بالأرض ، إذ يتحول المكان حالة نفسية وذهنية ، فكأنه يقول : " شيئا واحدا ، بسيطا ، عميقا ، ومعجزًا، أنا لا أكون إلا في الأرض ، فكل وجود لي خارجها إنما هو ضياع وتيه نهائي، لتكن الأرض داخلي تكتبني وأكتبها "[12] يضيف الباحث د/ عباس حسن " إن العربي استخدم حرف اللام للنسبة والتملك لي "[13] وهذا يؤيد طرحنا ، خاصة في المقطع التالي:

.. تقوم ريتا

عن ركبتي تزور زينتها وتربط شعرها بفراشة فضية، ذيل الحصان يداعب النمش.المبعثر

كرذاذ ضوء داكن فوق الرخام الأنثوي ، تعيد ريتا

زر القميص إلى القميص الخردلي .. أأنت لي ؟

لك لو تركت الباب مفتوحا على ماضي ، لي

ماض أراه الآن يولد من غيابك،من صرير الوقت في مفتاح هذا الباب، لي ماض أراه الآن يجلس قربنا كالطاولة [14]

هنا أحست ريتا بأن اللحظة الحاسمة قد حلت ، وحان لها الوقت لتطرح سؤالها الحاسم أأنت لي ؟ ليأتيها الجواب قويا كالصفعة ، إنه الماضي الذي صار حاضرا وماضيا في آن واحد ، فبقدر ما تعلن عن تمسكها بالشاعر يعلن هو تمسكه بالأرض ، وبذلك تتحول اللام عند درويش معادلا سيميائيا للأرض المفقودة ، الغائبة الحاضرة.

الهوامش

1 – سورة البقرة ، الآية : 23 .

2 – الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، المجلد الثاني ،1994 ، مادة (ح رف).

3 – الرئيس أبي علي الحسين بن سينا ، أسباب حدوث الحروف ، راجعه وقدمه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، 1978 ، الصفحة :33 .

4 – محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص – المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الصفحة : 33 .

5 – أبي الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الجزء الأول ، 1957 ، الصفحة : 46

6 – ينظر: الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الأسيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، فؤاد علي منصور ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، المجلد الأول ، 1998 ، الصفحة : 40.

7 – ينظر : المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

8 – ينظر : د/ عدنان حسين قاسم ، الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي ،مطبعة دبي ، الطبعة الأولى ، 1992 ، الصفحة : 166 .

9– محمود درويش ،ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، الصفحة : 247 .

10– د/ عباس حسن ، الحروف العربية ومعانيها :
www.awy-dam.org/book/98/study98/189-h-a/book-98. sd002htm.

11– الوقع نفسه .

12– اعتدال عثمان، النص –نحو قراءة ابداعية لأرض محمود درويش – مجلة فصول ، (الأسلوب والأسلوبية)، العدد 1، المجلد 5، مصر ، 1984 ، الصفحة : 193.

13– الموقع نفسه .

14– محمود درويش ، ديوانه ، الصفحة : 278 .